التعليم فى مصر

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

لابد للباحث فى حالة الإصلاح فى بلدنا هذا من أن يقف بين آن وآن برهة من الزمن ليراجع فيها الماضى وليدقق النظر فى الحاضر تعرفا لما كان، وتلمسا لما يكون، لعله يتمكن بذكريات الماضى وعبر الحاضر من رسم خطة سليمة للمستقبل . والتعليم فى مصر وهو من أهم أسباب نهضتها وأعظم عوامل الإصلاح فيها من الأمور التى يجب على المسئولين أن يراجعوا أنفسهم فيه بين فترة وأخرى حتى يتبينوا عيوبه فى الماضى ليتخلصوا منها فى الحاضر وفى المستقبل فى سبيل تنشئة جيل جديد يستطيع النهوض بالبلاد النهوض المأمول

إن السياسة العامة التى سارت عليها الحكومات المتعاقبة من زمن بعيد تعنى عنايتها الكبرى بنشر التعليم والإكثار من المدارس والمعاهد أكثر من عنايتها بأى شئ آخر ، حتى لقد تضاعف فى السنوات العشر الأخيرة عدد المدارس ، كما أصبحت لنا فعلا ثلاث جامعات تضم الآلاف من الطلاب . وهناك جامعة رابعة ينتظر أن تنهض بالعمل فى العام القادم بعد أن كانت لدينا جامعة واحدة . ولا شك أن نشر العلم بين الناس عمل جليل مشكور بشرط أن يكون ذلك على أساس سليم مثمر ، فى نظام يؤدى إلى التكوين الصحيح الذى يعرف به كل متعلم واجبه نحو نفسه ونحو معهده ونحو مواطنيه ونحو بلاده . فهل عرف متعلمونا اليوم واجبهم الحق وأدوه بعض الأداء ؟ الرد على ذلك فيما أذاعه معالى وزير المعارف السابق فى بيانه عن حالة المدارس الراهنة مما ملأ قلبه وقلب المصريين حسرة على ما أصاب معاهد التعليم من انتكاس وتدهور وفوضى يؤسف لها كل الأسف .

وعندى أن الأمر فى ذلك راجع إلى شئ واحد طالما نبهنا إليه فى مقالاتنا فى مجلة الرسالة الغراء التى لا تدخر وسعا فى العمل للنهوض بأبناء هذه الأمة .. وفى تقاريرنا التى شرفنا برفعها إلى وزير المعارف منذ أكثر من ربع قرن من الزمان من سنة ١٩٢٣ إلى اليوم .. بل وفى مؤلفنا « التعليم والمتعطلون فى مصر » الذى سبق أن أصدرناه منذ ثلاثة عشر عاما والذى ذكرنا فيه فى صراحة وجلاء فى صفحات متعددة منه أن المدرسة المصرية أهملت واجبها فى تربية تلاميذها وتكوينهم تكوينا خلقيا صحيحا .. وأن واجبها يقتضيها أن توجه عنايتها الخاصة إلى ذلك ، لأن التكوين الخلقى هو الدعامة الحقيقية للتنشئة ، وهو الذى ترعاه رعاية تامة كل الأمم فى تكوين أبنائها ، وهو الذى وجهنا إليه الله تبارك وتعالى فى وصف نبيه الكريم بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » وهو الذى عنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

نبهت مرارا وتكررا فى أكثر من ربع قرن من الزمان إلى ضرورة العناية بالتكوين الخلقى فى المدارس ، ورفعت التقرير

شهوية ولا لذة حسية إلا حاولوا أن يلحقوها بالجنة ظنا منهم أن هذا يجذب الناس إلى الأعمال الصالحة التى تؤدى إليها . كما لم يتركوا عذابا بدنيا ولا ألما حسيا إلا حاولوا إسناده إلى النار ظنا منهم أن هذا هو أشد رادع لهم عن إتيان المنكرات

إن القرآن جعل أكبر متع الجنة روحانيا إذ قال : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فأى شئ أحب إلى نفس الإنسان من الأمن والسلام ، إنهما فى نظر كل عاقل غاية ما يتمنى وأقصى ما يسعى إليه ، وهما الشئ الذى يحاول الإنسان فى حياته أن يلتمسه ويصل إليه . ثم يقول فى مكان آخر « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » فأى رذيلة وأى عمل أشد خبثا من الغل والحسد اللذين هما مصدر المصائب والمحن والآفات والنقم . إنهما أساس ما يصيب العالم من الكوارث والمهلكات والحروب الطاحنة . فإذا نزع ما فى الصدور من الغل والحسد ، صارت الحياة أهنأ وألذ كأنها هى الجنة التى أرادها الله بل إن الجنة لا تفضلها فى شئ

إن السلام والأمن والتصافى كل هذه أشياء حفل بها هذا الكتاب الذى جاء من لدن حكيم خبير

عبد الموجود عبد الحافظ

تلو التقرير إلى المسئولين ناصحا ومنبها ومنذرا، ولكن الجميع كانوا يبحثون منذ قرن وراء المناهج ووراء العلم فقط دون الأخلاق. ولقد جاء في تقريري المرفوع سنة ٢٨ إلى وزير المعارف لما بحث يسأل كبار رجال التعليم عن المناهج ما يأتي:

ياصاحب المعالي: مشكلة التعليم في مصر مشكلة معقدة يهتم لها الشعب وتهتم لها الحكومة اهتمامها بأهم أمور الدولة؛ لأنها أساس من الأسس العامة في بناء النهضة، وفي نظري أن مسألة المناهج ليست أهم شعب تلك المشكلة؛ فهناك نظم التعليم وما فيها من عيوب، وهناك المدرسون وكفاياتهم، وهناك التعليم في مجالس المديريات، وهناك الارتباط بين التعليمين الأولى والابتدائي، وهناك مسألة تشجيع الكفايات الخ الخ». وجاء في هذا التقرير «لا أراني مغاليا إذا قلت إن روح المنهج الجديد هي هي بعينها روح المنهج القديم، فالمدرسة الابتدائية وكذا الثانوية لا زالت منفصلة تماما عن البيئة المحيطة بهـــا.. ونظرية حشد الأدمغة بالمعلومات البعيدة عن الحياة لازالت متجسمة في منهجها الجديد، ولا زال كثير من التلاميذ يبغضون المدرسة وذكرها وكل ماله مساس بها، ولم يعمل المنهج الجديد شيئا في سبيل تحويل وجهة نظر التلاميذ والأهلين من الوظائف والتوظف الخ الخ».

وجاء في مؤلفي سابق الذكر صفحة ١٩٣ تحت عنوان عيوب التعليم الحاضر ما يأتي:

«هذا والعلم القديم الذي باشر العمل في المدارس المصرية منذ عشرين سنة ولا يزال يباشره إلى اليوم يشعر بالأسف العميق أيضا؛ إذ يحس أن روح الجد والعمل من ناحية التلاميذ قد انقلبت إلى روح استهتار وقلة اكتراث وكل يصحبها ميل شديد إلى الأخذ بأكبر نصيب من اللذة والتسلية وحياة الطراوة والهزل، حتى حار فيهم المربون وضاقوا بهم ذرعا واستولى اليأس من إصلاحهم على قلوب الكثيرين، وأصبحت الحالة لا تطاق بين جدران المدارس بسبب ما يوجد من الاستهتار والرعونة والخروج على المبادئ الأساسية المرعية بين التلميذ ومعلمه — وأن الفوضى التي تنتاب المدارس أحيانا من خروج على النظام والآداب وإتلاف لبعض أثاث المدرسة مما يتناول كرامتها وكرامة أساتذتها لمما تحزن له النفس ويهلع له القلب، وهذه حالة ستؤدي حتما إلى تدهور خلق أشنع مما تقاسيه البلاد الآن إذا لم تجد اليد القوية الحازمة الرادعة التي تضع الأمور في نصابها فتعيد إلى المدرسة كرامتها وتجعل أساس المعاملة بين التلميذ وأستاذه ومدرسته الاحترام الحقيق المشوب بالعطف الأبوي.. يقابله في الوقت نفسه حب بنوي» هذا إنذار قدمته منذ ثلاثة عشر عاما المسئولين فلم يستمع له أحد، وقد تحقق اليوم مع الأسف الشديد ما تنبأت به. وعلاوة على ذلك فقد أفردت الباب الرابع كله في مؤلفي السابق الذكر لموضوع تكوين الأخلاق بالذات، وأبنت فيه كثيرا مالتربية الأخلاق من قيم ونتائج، كما رسمت فيه خطة للاصلاح الخلقي

وإني لازلت أقرر — والحزن الذي ملأ قلب معالي وزير المعارف السابق وقلوبنا اليوم يملأ قلبي من سنين عديدة — أن الحالة المحزنة التي وصلت إليها المدرسة المصرية اليوم ترجع إلى إهمال العوامل النفسية والخلقية التي تؤثر أعظم التأثير في تكوين الناشئين. تلك العوامل التي نبهت إليها من زمن بعيد فلم يأبه لنصيحتي أحد فأصبحنا نقاسي اليوم نتائجهـا السيئة المريرة حائرين متزعجين مستفسرين متسائلين

أمرتهمو أمري بمنعرج اللوا فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

لقد أصبحنا اليوم على أبواب بحث جديد في حالة التعليم تجربه معـــالي حسونه باشا وزير المعارف وهو الرجل الذي يقدر الأخلاق الفاضلة حق قدرها، ويشرف عليه ذلك الرجل النابغة الذي كرس حياته لبناء مجد الوطن رفعة على ماهر باشا الذي تفخر به مصر كلها والذي أنخر شخصيا بأنه من بين مئات الكبراء المفكرين الذين أهديت إليهم مؤلفي سابق الذكر «التعليم والمتعطلون في مصر» كان الرجل الوحيد الذي تكرم فقرأه بعناية وأثنى عليه الثناء الجميل فكان ذلك مما يشجعني على أن أعاود الكرة في الكتابة اليوم في هذا الموضوع الجليل. وفقه الله ورفق جميع العاملين لما فيه خير هذه الأمة إنه سميع مجيب

احمد صفا — عبد الحميد فهمي مطر